العدد 38

مجلة كليّة الدعوة الإسلامية

مَجَلَّةٌ إسْلَامِيَّةٌ - ثَقافِيَّةٌ -جَامِعَةٌ- مُحَكَّمَةٌ

تصدر سنويًا عن كلية الدعوة الإسلامية

- تأملات حول قانون الترابط في آيات الآفاق والأنفس والقرآن.
- طريقة الرسول ﷺ في تــلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته.
- السنة فــي اصطــلاح مــدرســة المــدينــة المنــورة.
- الدعوة الإسلامية وآثارها في إصلاح المجتمع وتحقيق أمنه واستقراره.
- في مدلــول مصطلــح البلاغــة وأهميــة علومهــا وأهدافهــا.
- عــرض كتــاب التفسيــر الموضــوعي للخالــدي ونقــد لمنهجــه.

1446 هجرية الموافق 2024 ميلادية

العدد

38

1446 هـ 2024 م

مجلة كليّة الدعوة الإسلامية

مجلة كليّة الدعوة الإسلامية

BULLETIN

OF THE FACULTY

OF

THE ESLAMIC CALL

Vol. thirty eight

2024

في مدلول مصطلح البلاغة وأهمية علومها وأهدافها

أ.د. خالد ميلاد العـود
كليـة الدعوة الإسلامية- طرابلـس

ملخص البحث:

يعنى هذا البحث الوجيز ببيان مدلول البلاغة في اللغة من حيث اشتقاقها ومعانيها في لغة العرب، ومدلولها الاصطلاحي الذي أسهم فيه عدد من النقاد والأدباء، وذلك بتتبع أهم المراحل التي مر بها تطور استعمال الكلمة إلى أن استقرت مصطلحات ثابتة عند علماء البلاغة المتأخرين، كما يهتم البحث بتبيان أهمية علوم البلاغة وأهدافها وحاجة الدارسين إلى معرفتها وإتقانها.

وتأسيسا على ما سبق بنيت الدراسة على محورين: تناول الأول منهما المدلول اللغوي والاصطلاحي للبلاغة، وعرض الثاني أهمية البلاغة، والأهداف المتوخاة منها للمشتغلين في الإعجاز والنقد والأدب.

Research Summary:

This concise study explores the concept of rhetoric in language, focusing on its origins and meanings within Arabic. It also examines the technical definition shaped by various critics and writers, tracing the key stages of how the term evolved until it became firmly established among later rhetoric scholars. Additionally, the research highlights the significance of rhetoric

studies, their objectives, and the necessity for students to understand and master these concepts. The study is organized around two main themes: the first discusses the linguistic and technical meanings of rhetoric, while the second emphasizes its importance and the goals it serves for those involved in fields like literary criticism and the study of eloquence..

البحث:

الحمد لله الذي أنزلَ القرآنَ بخيرِ لسانٍ، فكان في أعلى درجاتِ البيانِ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ خيرِ من نطقَ بالصوابِ، وأفضلِ من أُوتِي الحِكمةَ وفَصْلَ الخطابِ، وعلى آلِهِ وأصحابِه الأمجادِ الأنجابِ.

وبعد، فهذا بحث وجيز بعنوان: «في مدلول مصطلح البلاغة، وأهمية علومها وأهدافها»؛ أردت من ورائها أن أسلط الضوء على مدلول البلاغة في اللغة من حيث اشتقاقها ومعانيها في لغة العرب، وعلى مدلول البلاغة الاصطلاحي عند العلماء من خلال تتبع أهم المحطات التي مر بها تطور هذه الكلمة إلى أن استقرت مصطلحًا ثابتًا عند علماء البلاغة المتأخرين، كما أردت أيضًا أن أبين أهمية معرفة علوم البلاغة، والأهداف المتوخاة من تعلمها.

وتأسيسًا على ما سبق بنيت البحث على محورين: تناولت في الأول منهما المدلول اللغوي والاصطلاحي للبلاغة، وعرضت في الثاني أهمية علوم البلاغة والأهداف المتوخاة للمشتغلين في الإعجاز والنقد والأدب.

أولاً- مدلول البلاغة لغة واصطلاحًا:

البلاغَة مصدر للفعل الثلاثيّ المجرّد (بَلُغَ) بضم اللام، وهو غير الفعل الثلاثي (بَلَغَ) بفتح اللام، الذي مصدره البَلاغ والبُلُوغ، وإن كان في معاني المادتين تقارب واتفاق كبير؛ ولذا جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس قوله: «الْبَاءُ وَاللَّامُ وَالْغَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ. تَقُولُ: بَلَغْتُ الْمَكَانَ، إِذَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ. وَقَدْ تُسَمَّى الْمُشَارَفَةُ بُلُوغًا بِحَقِّ الْمُقَارَبَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾[1]. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ

(1) سورة الطلاق: من الآية 2.

قَوْلُهُمْ: هُوَ أَحْمَقُ بِلْغٌ وَبَلْغٌ؛ أَيْ: إِنَّهُ مَعَ حَمَاقَتِهِ يَبْلُغُ مَا يُرِيدُهُ. وَالْبُلْغَةُ: مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، كَأَنَّهُ يُرَادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ الْمُكْثِرِ إِذَا رَضِيَ وَقَنِعَ، وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، وَلِي فِي هَذَا بَلَاغٌ؛ أَيْ: كِفَايَةٌ. وَقَوْلُهُمْ: بَلَّغَ الْفَارِسُ، يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ بِعِنَانِ فَرَسِهِ، لِيَزِيدَ فِي عَدْوِهِ. وَقَوْلُهُمْ: تَبَلَّغَتِ الْقِلَّةُ بِفُلَانٍ، إِذَا اشْتَدَّتْ، فَلِأَنَّهُ تَنَاهِي بِهَا، وَبُلُوغُهَا الْغَايَةَ»[1].

فهذا نص في أن كلتا المادتين تدور في معناهما العام حول الوصول والانتهاء والإدراك، وهذا ما أثبتته معجمات اللغة، حيث ورد في لسان العرب لابن منظور قوله: «بَلَغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغًا وبَلاغًا: وصَلَ وانْتَهَى، وأَبْلَغَه هو إِبْلاغًا وبَلَّغَه تَبْلِيغًا... وتَبَلَّغَ بالشيء: وصَلَ إِلى مُرادِه، وبَلَغَ مَبْلَغَ فلانٍ ومَبْلَغَتَه... البَلاغُ: ما يُتَبَلَّغُ به ويُتَوَصَّلُ إِلى الشيء المطلوب، والبَلاغُ: ما بَلَغَكَ، والبَلاغُ: الكِفايةُ... وبَلَغْتُ المكانَ بُلُوغًا: وصلْتُ إِليه، وكذلك إِذا شارَفْتَ عليه... والبَلاغةُ: الفَصاحةُ. والبَلْغُ والبِلْغُ: البَلِيغُ من الرجال. ورجل بَلِيغٌ وبِلْغٌ: حسَنُ الكلام فَصِيحُه يبلغ بعبارةِ لسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمعُ بُلَغاءُ. وقد بَلُغَ بالضم بَلاغةً؛ أَي: صار بَلِيغًا. وقولٌ بَلِيغٌ: بالِغٌ»[2].

ومع اشتراك المادتين في المعنى العام يمكن ملاحظة خصيصة معنوية لمادة (بَلُغَ)، وهي ما يقربها من المعنى الاصطلاحي، فإلى جانب إفادة الوصول والانتهاء والإدراك لا بُدَّ من الإجادة والإتقان؛ وهو ما أُشير إليه بترادفها مع الفصاحة، وأُكِّدَ أيضًا في اللسان بقوله: «وشيءٌ بالغ؛ أَي: جيِّدٌ، وقد بَلَغَ في الجَوْدةِ مَبْلغًا»[3]. وكذا في وصف الرجل البليغ بالفصاحة وحسن القول؛ وما تمَّ له ذلك إلا باتصاف كلامه بالجودة والتَّمَيُّز الذي يحلّق به في سماء الإبداع، ومما يدخل في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا**﴾ [4]؛ يقول الفخر الرازي معلِّقًا: «الْقَوْلَ الْبَلِيغَ صِفَةٌ لِلْوَعْظِ، فَأَمَرَ تَعَالَى بِالْوَعْظِ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْوَعْظُ بِالْقَوْلِ الْبَلِيغِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا بَلِيغًا طَوِيلًا، حَسَنَ الْأَلْفَاظِ، حَسَنَ الْمَعَانِي، مُشْتَمِلًا عَلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالْإِحْذَارِ

(1) معجم مقاييس اللغة: مادة (ب، ل، غ).
(2) لسان العرب: مادة (ب، ل، غ).
(3) المصدر نفسه: مادة (ب، ل، غ).
(4) سورة النساء: من الآية 63.

وَالْإِنْذَارِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ هَكَذَا عَظُمَ وَقْعُهُ فِي الْقَلْبِ، وَإِذَا كَانَ مُخْتَصَرًا، رَكِيكَ اللَّفْظِ، قَلِيلَ الْمَعْنَى؛ لَمْ يؤثر ألبتة في القلب»[1].

فالبلاغة في اللغة إذًا تعني الوصول والانتهاء والإدراك مقرونة بإجادة وإتقان.

وإذا تتبعنا كتب الأدب والنقد والبلاغة باحثين عن المعنى الاصطلاحي لكلمة البلاغة فإننا نصادف طائفة كبيرة من الأوصاف أطلقها العلماء، محاولين وضع تعريف للبلاغة؛ كل حسب ثقافته وتصوره لها، وإن كان أغلبهم يركز في تعريفه عما يحمله اللفظ من دلالة على حسن القول والإجادة فيه. ولعل أبا عثمان الجاحظ (ت 255هـ) من أوائل من بحثوا في تعريف البلاغة، حيث توسع في ذلك، وجمع لها عدة تعريفات نقلها عن العرب وغيرهم من الأمم، فمما نقله عن العرب، ما أورده لصُحار بن عَيَّاش العبديّ عندما سأله معاوية (ﷺ) بقوله: «ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تجيبَ فلا تبطئ[2]، وتقول فلا تخطئ»[3]. وروى الجاحظ مثل هذا التعريف عن المفضَّل الضَّبِّيّ[4].

ومما نقله عن الأمم الأخرى قوله: «قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماعُ البلاغةِ البَصَرُ بالحُجَّةِ، والمعرفةُ بمواضعِ الفُرْصَةِ...»[5].

ولم يكتف بمجرد النقل عن غيره؛ بل أبدى إعجابه ببعض ما ينقل من تعريفات، نحو قوله: «وقال بعضهم -وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوَّنَّاه-: لا يكون الكلام يستحقُّ اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَهُ، ولفظُهُ معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[6].

(1) مفاتيح الغيب: 10/ 123.
(2) فلا تبطئ: لا تطيل.
(3) البيان والتبيين: 1/ 96.
(4) ينظر المصدر نفسه: 1/ 97.
(5) المصدر نفسه: 1/ 88.
(6) البيان والتبيين: 1/ 115.

والملاحظ على ما نقله الجاحظ من تعريفات للبلاغة أو أشاد به منها أنَّها لم تستقرَّ على مفهوم اصطلاحي محدّد، وهي أقرب إلى الصِّفاتِ منها إلى التَّعريفات، وهذا أمر طبيعي في بداية نشأة المصطلحات، كما أنَّ هذه التعريفاتِ جميعها تدور في فلك المعنى اللغوي الذي حدَّدناه للبلاغة، وهو الوصولُ والانتهاءُ والإدراكُ مع الإجادة والإتقان؛ أي: التأنُّقُ في اختيار الكلام، وحسن التعبير عن المراد؛ ليبلغ الكلام إلى السمع ويُحْدِثَ فيه التأثيرَ المطلوب في المتلقِّي.

غير أن الجاحظ في بعض إشاراته كان مدركًا للبلاغة بمفهومها الاصطلاحي الذي استقر عند البلاغيين المتأخرين، وهو «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته». فقد وصل إلى النتيجة ذاتها حين رأى أن بلاغة الكلام تتحقق في تناسب الألفاظ مع الأغراض المسوقة لها؛ يقول الجاحظ: «ولكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكلّ نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسّخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال»[1]. ومما اختاره الجاحظ واطمأنّ إليه من كلام بشر بن المعتمر، قوله: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[2].

ولا شك في أن البلاغيين الذين جاءوا بعد الجاحظ كانوا ينظرون إلى كلامه وهم يَضَعُونَ تعريفهم للبلاغة. وإذا ما حاولنا أن نتتبع أهم المراحل التي مر بها تطور مفهوم البلاغة ومحاولات البلاغيين والنقاد وإسهاماتهم في تعريفه بعد الجاحظ، فإنه يمكن تصنيفهم في ثلاث فرق:

1- الفريق الأول: لجأ أصحابه إلى وصف البلاغة، ولم يصلوا إلى تعريف جامع مانع لها، ومن هؤلاء أبو العباس المبرد (ت 285هـ)، وأبو هلال العسكري (ت 395هـ)؛ حيث يذهب المبرد إلى القول: «إن حقَّ البلاغة إحاطةُ القولِ بالمعنى، واختيارُ الكلام، وحسنُ

(1) الحيوان: 3/ 17.

(2) البيان والتبيين: 1/ 138.

النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شِكْلِهَا، وأن يُقَرِّبَ بها البعيدَ، ويحذفَ منها الفضولَ»[1]. فهو يشير إلى الصفة التي ينبغي أن يكون عليها الكلام حتى يستحق اسم البلاغة.

ويذهب العسكري إلى أن البلاغة «كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن»[2]؛ أي إن البلاغة عنده تكمن في قدرة المتكلم على توصيل المعنى واضحًا إلى المتلقي، في عبارة حسنة تؤثر في نفسه.

2- الفريق الثاني: حاول أصحابه أن يحددوا مفهوم البلاغة وأن يوضحوا المعالم التي تميّزها، وإن خلط بعضهم بين مصطلحي البلاغة والفصاحة، وهؤلاء لم يصلوا – برغم محاولاتهم الجادة- إلى وضع تعريف جامع مانع للبلاغة، ومن هؤلاء: ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ).

فالخفاجي ينعى على سابقيه ما ذكروه من تعريفات للبلاغة، فهم لم ينتهوا بها إلى المفهوم الصحيح الذي ينبغي أن يكون، وما ذكروه لا يعدو كونه مجرد صفات لها أو علامات عليها؛ يقول: «وقد حَدَّ الناسُ البلاغة بحدود إذا حُقِّقتْ كانت كالرسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة»[3]. كما ساق الخفاجي بعضًا من هذه المحاولات التي يراها لا تفي بتعريف البلاغة.

وعلى الرغم مما أخذه الخفاجي على محاولات سابقيه، فإننا لا نجد عنده تعريفًا محدَّدًا للبلاغة؛ بل نجده يقرن حديثه عنها - في الغالب- بحديثه عن الفصاحة التي كانت محطَّ اهتمامه، للحاجة إليها في فهم نظم الكلام ونقده والتعرف لبلاغة النص القرآني. وفي تعريفه للفصاحة لا نجد ما يميزها عن البلاغة، فهو يذهب إلى أن «الفصاحة عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار»[4]. وهو وإن لم يميز بين المصطلحين في التعريف، فقد حاول أن يبين الفرق بينهما؛ حيث قصر الفصاحة على وصف الألفاظ، في حين رأى أن

(1) البلاغة: ص59.
(2) الصناعتين: ص16.
(3) سر الفصاحة: ص60.
(4) سر الفصاحة: ص105.

البلاغة لا تكون إلا وصفًا للألفاظ مع المعاني[1]؛ أي: أن هناك علاقة عموم وخصوص بين المصطلحين، فكل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغًا.

ولم ير عبد القاهر الجرجاني فرقًا بين المصطلحين؛ بل عدهما مع مصطلحات أخرى من المترادفات، ووضعها في فصل واحد من كتابه دلائل الإعجاز، استهلَّه بقوله: «فصل في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك مما يُعَبَّر به عن فضل بعض القائلين على بعض حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ... »[2].

وخلاصة رأي عبد القاهر أنَّ مدلول البلاغة والفصاحة واحد، هو أن تؤدى المعاني الجياد في صورة بارعة من التعبير تليق بها، وتحدث التأثير في نفوس المتلقين؛ فلا معنى لها «غيرُ وصْفِ الكلام بِحُسْنِ الدلالة، وتمامِها فيما له كانت دلالة، ثم تَبرُّجِها في صورةٍ هي أبهى ... وأَحقُّ بأن تستوليَ على هوى النفس، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب، ... ولا جهة لاستعمال هذه الخصال: غيرُ أنْ تأتِيَ المعنى من الجهة التي هي أَصحُّ لتأديته، وتَخْتارَ له اللفظُ الذي هو أَخصُّ به، وأَكْشَفُ عنه وأَتمُّ له، وأحرى بأن يَكسبه نُبلاً، ويُظهِرَ فيه مزيَّة»[3].

3- الفريق الثالث: وقد استطاع أصحابه بما أوتوا من إمكانات علمية، وبما أفادوه من ملاحظات سابقيهم، أن يضعوا للبلاغة تعريفًا محدَّدًا مستقرًّا، ارتضاه البلاغيون والنقاد، ويمثل هذا الفريق أبو يعقوب السكاكي (ت 626هـ)، والخطيب القزويني (ت 739هـ).

استطاع السَّكاكي بعقليته المنطقية المنظمة أن يضع تعريفًا محدَّدًا دقيقًا للبلاغة، كما استطاع أن يُقَنِّن علومها، وأن يُبَوّب أبوابها تبويبًا صارمًا، حيث عرف البلاغة بقوله: «هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواصّ التّراكيب حقَّها، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»[4].

(1) سر الفصاحة: ص60.
(2) دلائل الإعجاز: ص43.
(3) المصدر نفسه: ص43.
(4) مفتاح العلوم: ص415.

فالسكاكي بتعريفه هذا هو أول من قسم البلاغة إلى علمين متميزين: علم يتعلق بالنظم سمّاه علم المعاني، وعلم يتعلق بالتشبيه والمجاز والكناية أو بالصورة سمّاه علم البيان[1]، ولم يذكر القسم الثالث من أقسام البلاغة، وهو علم البديع، وإن كان قد عرض للمحسنات بعد فراغه من دراسة مباحث علمي المعاني والبيان؛ لأنه عنده وجوه مخصوصة كثيرًا ما يؤتى بها لقصد تحسين الكلام.

ويأتي الخطيب القزويني الذي كان من أشد المعجبين بكتاب السكاكي «مفتاح العلوم»، ليلخص المفتاح في كتاب سمَّاه «تلخيص المفتاح»، ثم يعمد بعد ذلك إلى وضع شرح لهذا التلخيص سمَّاه «الإيضاح شرح تلخيص المفتاح»، وبهذين الكتابين نال القزويني شهرة واسعة في ميدان البلاغة، ومن مميزات عمله أنه لم يكتف بتلخيص كلام السكاكي وشرحه؛ بل كانت له عليه استدراكات وتعديلات وإضافات في بعض المسائل؛ مما جعل مباحثه أكثر تكاملاً من المفتاح.

وقد وقف القزويني عند مفهوم البلاغة، وانتهى فيه إلى القول: «وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة: فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد... وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام»[2].

وبهذا التعريف أخذ من جاء بعد القزويني من العلماء؛ بل تأثروا بمنهجه في تقديم الحديث عن الفصاحة والبلاغة، وعَدِّهما مقدّمة لدراسة البلاغة بعلومها الثلاثة، وكذلك في عده البديع علمًا أساسيًّا ومهمًّا من علوم البلاغة شأنه في ذلك شأن علمي المعاني والبيان، وليس ملحقًا بهما أو تابعًا لهما كما يذهب السكاكي.

ثانيًا- أهمية علوم البلاغة وأهدافها:

تعد البلاغة واحدة من أهم علوم اللغة العربية التي نشأت بدافع الغيرة على النص القرآني الكريم، وتوضيح معانيه وبيان إعجازه؛ إذ من المعلوم أن معجزة القرآن الكريم الخالدة تكمن في بلاغته، وهو أمرٌ أقرَّ به فحول البلاغة وأربابها زمن نزول الوحي وبعده، أيام كانت السَّلائق اللغوية صافية، ومعين اللغة خاليًا من شوائب العجمة والاختلاط؛

(1) ينظر: دراسات بلاغية ونقدية: ص42، 43.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع: ص20.

ظهر ذلك في أفعالهم وأقوالهم؛ فأما الأفعال فحسبك أن من رفضوا دعوة الحقّ منهم كبرًا وتعاليًا اختاروا الحرب والقتال على الرد باللسان، مع أنه أيسر طريق، وفيه بُعْدٌ عن كل مشقَّة وضيق، وبخاصة أن القرآن الكريم تدرَّج في تحدِّيهم، حتى طالبهم بأن يأتوا بسورة، فلم يستطيعوا، قال تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1]. فإيثار أصحاب البلاغة البارعة، والعبارات الناصعة، والكلمات الجامعة، المسلك الوعر دليل على أنهم رأوا في القرآن قوَّةَ بيان وإعجاز تتقاصر عنه الهمم، وتنقطع عنده الأطماع؛ وهو ما يؤكده الشيخ عبد القاهر الجرجاني بقوله: «لولا أَنهم حِينَ سَمِعُوا القرآنَ، وحينَ تُحُدُّوا إلى معارضته، سَمِعُوا كلامًا لم يسْمَعُوا قَطُّ مثلَه، وأنهم رازوا أنفسهم فأحسّوا بالعجزِ عن أنْ يأتوا بما يُوازيه أو يُدانيه أو يقَعُ قريبًا منه لكان مُحالاً أن يَدَعُوا معارضته وقد تُحُدُّوا إليه، وقُرِّعُوا فيه، وطُولبوا به، وأن يتعرَّضُوا لِشَبا الأَسِنَّة، ويقتحموا موارد الموت»[2]. هذا دليل الأفعال، أمّا الأقوال فهي كثيرة، تشهد بإقرار معانديهم بروعة القرآن وأثره العميق في نفوس مستمعيه؛ أليس هذا البيان هو مَا أنطق الوليدَ بن المغيرة وهو الخصم اللدود، حتى قال: «واللهِ لقد سَمِعْتُ من محمّدٍ آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ؛ إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو وما يعلى»[3]؟.

كان العرب الخلَّص زمن النبي (ﷺ) يدركون سر بلاغة القرآن بفطرتهم، ولم يكونوا بحاجة إلى إبراز ما ينطوي عليه القرآن من أسرار بلاغية، غير أنه بمرور الزمن، ودخول أقوام وأمم مختلفة الألسنة من غير العرب في دين الله واتساع رقعة الدولة الإسلامية، وانصهار كثير من هؤلاء في المجتمع الإسلامي؛ أدى كل ذلك إلى ضعف السلائق اللغوية، وحاجة العرب وغير العرب إلى فهم النص القرآني، والوقوف على أسرار بيانه؛ يقول أبو حيان الأندلسي: «فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ، وَكَثُرَتِ الْعَجَمُ، وَدَخَلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَنْوَاعُ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفُو الألسنة، والناقصو الْإِدْرَاكِ، احْتَاجَ الْمُتَأَخِّرُونَ إِلَى إِظْهَارِ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْ غَرَائِبِ التَّرْكِيبِ، وَانْتِزَاعِ الْمَعَانِي، وَإِبْرَازِ النُّكَتِ الْبَيَانِيَّةِ، حَتَّى يُدْرِكَ ذَلِكَ

(1) سورة البقرة: آية 23.

(2) دلائل الإعجاز: ص38.

(3) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 4/ 489.

مَنْ لَمْ تَكُنْ فِي طَبْعِهِ، وَيَكْتَسِبَهَا مَنْ لَمْ تَكُنْ نَشْأَتُهُ عَلَيْهَا، وَلَا عُنْصُرُهُ يُحَرِّكُهُ إِلَيْهَا، بِخِلَافِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنَ الْعَرَبِ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مَرْكُوزًا فِي طِبَاعِهِمْ، يُدْرِكُونَ تِلْكَ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا، مِنْ غَيْرِ مُوَقِّفٍ وَلَا مُعَلِّمٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ لِسَانُهُمْ وَخُطَّتُهُمْ وَبَيَانُهُمْ، عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَفَاوَتُونَ أَيْضًا فِي الْفَصَاحَةِ وَفِي الْبَيَانِ»[1].

فأبو حيان يرى أن التغيّر الذي طرأ على المجتمع العربي بسبب الفتوحات الإسلامية وما رافقه من اختلاط بالأعاجم، كان الدافع إلى أن يبحث المتأخرون في بلاغة القرآن، فالصحابة - رضوان الله عليهم- كانوا أعلى قدرًا في فهم القرآن وإدراك حقائقه من التابعين، والتابعون كانوا أعلى قدرًا ممن بعدهم، وهكذا كلَّما كان البعد عن صفاء اللُّغة، كان البعد أشدُّ في إدراك معاني القرآن وفهم مقاصده وأحكامه وأسراره[2].

فالبعدُ الزمنيّ عن معينِ اللُّغةِ الصَّافي، وفسادُ السَّلائقِ والأذواقِ بالاختلاط، وحاجةُ العربِ وغيرِ العربِ إلى فهم كتاب الله وتبيان مكامن بيانه، فضلاً عن ظهور طوائف من الطَّاعنين المشكِّكِين في الإسلامِ وكتابهِ الخالد من أصحاب الدِّياناتِ القديمةِ المختلفة الذين ساءهم أن تدول دولهم وتنحسر أديانهم، وأن يصل العرب إلى هذه النَّهْضة؛ كل ذلك كان دافعًا لأهل الغيرة على الدين من علماء العربية الأعلام إلى أن يقوموا بواجبهم في تبيين نصوص الكتاب الحكيم، ورَدِّ كل المطاعن والشُّكوك التي وجَّهها إليه الحاقدون، وكان من جملة ما كتبوه بيانهم للوجه البلاغيّ في القرآن، وعدّه أهم وجوه الإعجاز.

كان هذا الهدف الديني أهم الأهداف التي دفعت العلماء إلى البحث في مسائل البلاغة والحثِّ على تعلُّمها؛ يقول أبو هلال العسكريّ (ت 395هـ): «إنَّ أحقَّ العلوم بالتعلُّمِ وأولاها بالتَّحَفُّظِ- بعد المعرفة بالله جلَّ ثناؤه- علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة... وقد علمنا أنَّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة؛ لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، فينبغي من هذه الجهة أن يُقدَّم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم»[3].

(1) البحر المحيط في التفسير: 1/ 25، 26.

(2) ينظر أصول التفسير وقواعده: ص138.

(3) الصناعتين: ص 1.

فاختصاص هذا العلم ببيان الإعجاز هو ما يجعله في صدارة العلوم؛ لأن معرفة وجه الإعجاز يقيم اليقين العقلي والبرهان البياني في قلوب أتباع الإسلام، ويجعلهم أشدّ تمسكًا بدينهم وقرآنهم؛ فالَّذي يفقه إعجاز القرآن سيقف عند حروفه، لا عند كلماته فحسب.

ومما له اتِّصالٌ وثيقٌ بهذا الوجه أنَّ البلاغة بعلومها الثلاثة من العلوم التي لا بدَّ لمن رام تفسير كتاب الله العزيز من الإلمام بها، ومعرفتها حق المعرفة؛ لأنه يراعي في تفسيره ما يقتضيه الإعجاز، وإنَّما يُدرك بهذه العلوم.

إنَّ العلاقة بين البلاغة والتَّفسير علاقة واضحة ومنطقيَّة؛ «فالتَّفسيرُ علمٌ يهتمُّ في مجمله بتحليلِ النَّصِّ القرآنيِّ من نواحيه اللُّغَوِيَّة والبيانيَّةِ. وتحليل الجانب البلاغيّ في القرآن مستوى من مستويات التَّفسير»[1].

وانطلاقًا من هذه العلاقة أكَّد المفسرون أن علوم البلاغة من أهمِّ العلوم التي يحتاجها المفسِّر، ونصُّوا عليها في تفاسيرهم، فالزَّمَخْشَريّ يذهب في مقدّمة الكشَّاف إلى أنَّ: «الفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه؛ لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلّا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة»[2].

كما نص العلماء على حاجة المفسِّر إلى علوم البلاغة الثَّلاثة في التَّفسير، وعدّوها من أهم أدوات المفسر في عمله؛ فالسيوطي حصر العلوم التي يحتاج المفسر إليها في خمسة عشر علمًا، كان من بينها علوم المعاني والبيان والبديع؛ «لأنه يُعْرَف بالأوَّل خواصُّ تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وبالثّاني خواصّها من حيث اختلافها في وضوح الدَّلالة وخفائها، وبالثَّالث وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثَّلاثة هي علوم البلاغة،

(1) البلاغة العربية (تاريخها، مصادرها، مناهجها): ص 13.

(2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 1/ 18.

وهي من أعظم أركان المفسّر؛ لأنه لا بدَّ له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم»[1].

هذا ولم يكن بيانُ وجهِ الإعجاز والرَّدُّ على الشبهاتِ وامتلاكُ آلة التَّفسير وحدها الهدف من قيام البحث البلاغي كما نوّهنا آنفًا ؛ بل كانت هناك أهداف أخرى ومقاصد نبيلة، تتمثل في وضع مقاييس نقدية وجمالية يحتكم إليها في الحكم على النصوص جودة ورداءة، ويصار إليها في تقديم نص على نص؛ يقول أبوهلال: «ولهذا العلم فضائلُ مشهورة ومناقبُ معروفة؛ منها أنّ صاحب العربية إذا أخلَّ بطلبه، وفرَّط في التماسِه، ففاتَتْه فضِيلتُه، وعَلِقَتْ به رذيلةُ فَوْتِهِ، عَفَّى على جميع محاسنه، وعَمَّى سائرَ فضائلِهِ؛ لأنه إذا لم يفرق بين كلامٍ جيِّد، وآخرَ رديءٍ؛ ولفظٍ حسن، وآخرَ قبيح؛ وشِعْرٍ نادر، وآخر بارد، بانَ جَهْلُه، وظهر نَقْصُه»[2].

إذن لا غنى للناقد عن الإلمام بعلم البلاغة، واستثمار مادتها في عمله؛ إذ البلاغة تمثل «بنك معلومات دلالية وجمالية يصب فيه النقاد وعلماء اللغة والأدب نتائج آرائهم وأبحاثهم، وفق ضوابط علمية اصطلاحية توافقية معينة، ثم يأخذ منه هؤلاء النُّقاد والعلماء في الأزمان المتلاحقة هذه النتائجَ - الأصولَ- القوانينَ، ليستعينوا بها في أداء مهمتهم النَّقديَّة أو العلميَّة، كلٌّ بحسب حاجته وسياق بحثه»[3].

كما أن دراسة البلاغة تُمَكِّن النَّشء من أهمّ الأدوات والمفاتيح الَّتي تعينه على إنشاء الأدب بمختلف أجناسه وضروبه؛ يقول أبوهلال موضحًا أهمية علم البلاغة هذا للشاعر والكاتب: «وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة- وقد فاته هذا العلم- مزج الصّفو بالكدر، وخلط الغُرَرَ بالعَرَرِ، واستعمل الوحشيَّ العَكِر؛ فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل... وإذا أراد أيضا تصنيف كلام منثور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطّى هذا العلم ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه؛ فأخذ الرديء المرذول، وترك الجيد المقبول، فدلّ على قصور فهمه، وتأخّر معرفته وعلمه»[4].

(1) الإتقان في علوم القرآن: 2/ 465.
(2) الصناعتين: ص2
(3) تأصيل البلاغة (بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية): ص9.
(4) الصناعتين: ص 2

ويرى عبد الرحمن الميدانيّ أن هذا الغرض الأدبيّ البلاغيّ هو مقصد من أهمِّ المقاصد التي كان يتغيَّاها علماء البلاغة، فهو الذي يأخذ بيد النَّاشئ الموهوب إلى أن يصل إلى درجة الإبداع والابتكار؛ يقول الميداني: «والْغَرَضُ من عرض البَاحثين لفنون البلاغة وعلومها، وللمذاهب الأدبيّة المختلفة، وللأمثلة الأدبيّة الراقية المقرونةِ بالتحليل الأدبي والبلاغي، تَرْبيةُ القدرة على الإحساس بعناصر الجمال الأدبيِّ في الكلام الأدبيّ الرَّفيع، وتربية القدرة على فهم النُّصُوص الجميلة الرَّاقية، والقدرة على محاكاة بعضها في إنشاء الكلام، والقدرة على الإبداع والابتكار لدى الَّذين يملكون في فطرهم الاستعداد لشيء من ذلك»[1].

فالبلاغة تكشف للنَّاشئة عن جماليَّات النُّصوص، وترقِّي أذواقهم على الأدب الرفيع، فمن خلال استيعاب قواعدها المبنية على النظر في النصوص الراقية، ومحاولة الالتزام بهذه القواعد في إنشاء الأدب ومحاكاة هذه النصوص، يترقى النَّاشئة الموهوبون في درجات الإنشاء إلى أن يصلوا درجة الإبداع.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة الوجيزة نجمل أهم ما عرضت له من قضايا، وما أسفرت عنه من نتائج:

1- البلاغَة مصدر للفعل الثلاثيّ المجرّد (بَلُغَ) بضم اللام، وهو غير الفعل الثلاثي (بَلَغَ) بفتح اللام، الذي مصدره البَلاغ والبُلُوغ.

2- تشترك مادتا (بَلُغَ) و(بَلَغَ) في المعنى؛ فكلتاهما تدلان على الوصول والانتهاء والإدراك.

3- تنفرد مادة (بَلُغَ) بخصيصة معنوية تجعلها قريبة من المعنى الاصطلاحي، فإلى جانب إفادتها الوصول والانتهاء والإدراك لا بُدَّ أن تقرن بالإجادة والإتقان.

4- يعد الجاحظ (ت 255هـ) من أوائل من بحثوا في تعريف البلاغة، حيث توسع فيه، وجمع عدة أقوال، هي أقرب إلى الصفات منها إلى التعريفات، وهي جميعها تدور في فلك المعنى اللغوي للبلاغة.

(1) البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، وصور من تطبيقاتها: 1/ 11

5- تدل بعض إشارات الجاحظ إلى أنه كان مدركًا للبلاغة بمفهومها الاصطلاحي الذي استقر عند البلاغيين المتأخرين.

6- يمكن تصنيف محاولات البلاغيين النقاد بعد الجاحظ في تعريف البلاغة إلى ثلاثة فرق: **أولها**- لجأ أصحابه إلى وصف البلاغة وصفًا عامًا، ولم يصلوا إلى تعريف جامع مانع لها. **وثانيها**- حاول أصحابه أن يحددوا مفهوم البلاغة وأن يوضحوا المعالم التي تميزها، وإن خلط بعضهم بين مصطلحي البلاغة والفصاحة، وهؤلاء أيضًا لم يصلوا - برغم محاولاتهم الجادة- إلى وضع تعريف جامع مانع للبلاغة. **وثالثها**- استطاع أصحابه بما أوتوا من إمكانات علمية، وبما أفادوه من ملاحظات سابقيهم، أن يضعوا للبلاغة تعريفًا محدَّدًا مستقرًّا، ارتضاه البلاغيون والنقاد.

7- وضع السكاكي حدًّا علميًّا دقيقًا للبلاغة، هو «بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقَّها، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها».

8- بوَّب السكاكي البلاغة تبويبًا صارمًا، وقسّم علومها إلى علمين متميزين، هما: علم المعاني، وعلم البيان، ولم يذكر القسم الثالث من هذه العلوم (علم البديع)، وإن كان قد عرض للمحسنات بعد فراغه من دراسة مباحث علمي المعاني والبيان؛ لأنها عنده وجوهٌ مخصوصة كثيرًا ما يُؤتى بها لقصد تحسين الكلام.

9- نال القزويني بكتابيه: «تلخيص المفتاح»، و«الإيضاح» شهرة واسعة في ميدان البلاغة، وتميز عمله بعدم الاكتفاء بتلخيص كلام السكاكي وشرحه؛ بل كانت له عليه استدراكات وإضافات في بعض المسائل؛ مما جعل مباحثه أكثر تكاملاً من «المفتاح».

10- كان الهدف الديني المتمثل في إيضاح النص القرآني، والوقوف على أسرار بيانه، ورَدِّ مطاعن الحاقدين وتشكيكاتهم، من أهم الأهداف التي دفعت العلماء إلى البحث في مسائل البلاغة والحث على تعلمها.

11- تُقَدِّمُ البلاغةُ بعلومها الثلاثة للمفسِّر لكتاب الله العزيز الأداة التي تمكنه من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز في تفسيره.

12- من أهداف علوم البلاغة وضع مقاييس نقدية وجمالية يحتكم إليها النقاد في الحكم على النصوص جودة ورداءة، ويصار إليها في تقديم نص على نص.

13- دراسة البلاغة تمكن النشء من أهم الأدوات والمفاتيح التي تعينه على إنشاء الأدب بمختلف أجناسه وضروبه.

==========

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 2006م.

2- أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406هـ.

3- الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، تح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.

4- البحر المحيط في التفسير: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، تح صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2010م.

5- البلاغة: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تح رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1965م.

6- البلاغة العربية (أسسها، وعلومها، وفنونها، وصور من تطبيقاتها): عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، والدار الشامية بيروت، ط1، 1996م.

7- البلاغة العربية (تاريخها، مصادرها، مناهجها): علي عشري زايد، مكتبة الشباب، مصر، 1982م.

8- البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1988م.

9- تأصيل البلاغة (بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية): عبد الملك بومنجل، منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده، جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2، 2015م.

10- الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ. دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ.

11- دراسات بلاغية ونقدية: أحمد مطلوب، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980م.

12- دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ط3، 1992م.
13- سر الفصاحة: أبو محمد عبد الله ابن سنان الخفاجي، تح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده، القاهرة، 1952م.
14- كتاب الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2000م.
15- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري، تح أبي عبد الله الداني بن منير آل زَهوي، دار الكتاب العربي بيروت، ط1/ 2006م.
16- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. دار صادر، بيروت، ط 3، 1993م.
17- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس. تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت - لبنان، 1979م.
18- مفاتيح الغيب: محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
19- مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، تح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.